الباب الرابع

الأصولية ...

وجهة نظر إسلامية

الأصولية .... وجهة نظر إسلامية *

تم فى الفترة الأخيرة استدعاء تعبير كان ضامراً فى الاستعمال اللهم إلاعند أهل الاختصاص وهو تعبير الأصولية ، ولأن الاستدعاء كان غريباً فى الأساس فكان استعماله فى اتجاه التعبير بالسلب عن هذا التعبير ، فكان هذا الاستعمال صادماً لكثير من المسلمين ؛ لأن التعبير عند المسلمين ليس سلبيا بل تعبيراً إيجابيًّا ، فالأصولية والأصوليون وهم أهل الاختصاص فى الأصول (أى أصول الدين أو أصول الفقه) هى تعبيرات كما قلت ذات مدلول إيجابى ، والأصوليون بهذا التعريف هم أهل تقدير واحترام بين أغلب المسلمين الحريصين على دينهم وأهل الاختصاص الشرعى فيهم (أى الأصوليون) .

الأصولية عند المسلمين :

فالأصولية عند المسلمين تعنى شيئين :

أ – الأول : هى العناية بأصول الدين .

وهى العقائد والعبادات وأصول المحرمات والواجبات فى المعاملات .

---

* ورقة مقدمة للحلقة الدراسية "الأديان نظرات متبادلة" التى ينظمها الفريق العربى للحوار الإسلامى – المسيحى عمان – الأردن ١٧ – ٢١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠٥ م .

ب – الثانى : العناية بأصول الفقه .

وهى أدلة الأحكام وطرق الاستنباط منها أو كما عرفها العلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف " فعلم أصول الفقه فى الاصطلاح الشرعى هو العلم بالقواعد والبحوث التى يتوصل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، أو هى مجموعة القواعد والبحوث التى يتوصل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية"(٢٨).

ويتحدث علماء الشريعة بتقدير كبير عن المتخصصين فى هذا العلم وهم الأصوليون فيقول عنهم الشيخ محمد الخضرى فى كتابه أصول الفقه : " ... ومما تقدم قال بعض الأصوليين : إن علم أصول الفقه قواعد مستعارة من علوم أخرى (يقصد علومًا شرعية ولغوية أخرى) وليس فى ذلك غض منه لأن الأصوليين جمعوا من العلوم المختلفة ما يرجع إلى غرضهم ويختص ببحثهم ، فألفوه وصيروه علما موضوعه الدليل السمعى "(٢٩) .

---

(٢٨) الشيخ عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة سابقًا . كتاب علم أصول الفقه ص ١٢.

(٢٩) الشيخ محمد الخضرى كتاب أصول الفقه ص ١٥ .

لكل ما تقدم يتضح أن كلمة الأصولية كلمة محببة لدى المسلمين ، وأن تعبير الأصولية ليس ذمًّا بل مدحًا بهذا المفهوم الإسلامى الصحيح فالعودة إلى الأصول وخاصة أصول الدين عودة محمودة حيث النبع الصافى ونقاء الرسالة وبعدها عن الدخن والتحريف

الأصولية بمفهومها الغربى :

أما الاستعمال الغربى لهذا المصطلح والذى يقصد فيه الذم بمعنيين أن الأصولية إما تعبير عن التطرف والغلو أو تعبير عن الإرهاب وجرائمه بمعنى القتل الظالم والعدوان غير المبرر.

ففى اللغة الإنجليزية كلمة " Fundamentalist " لا تعنى كلمة أصولى فى العربية ولكن ترجمتها فى القواميس هى متعصب ومتشدد ومتزمت (قاموس المورد) وكلمة" Fundamentalism " ترجمتها فى القاموس (مذهب العصمة الحرفية وهى حركة عرفتها البروتستانتية فى القرن العشرين تؤكد على أن الكتاب المقدس معصوم عن الخطأ لا فى قضايا العقيدة والأخلاق فحسب بل أيضا فى كل ما يتعلق بالتاريخ ومسائل الغيب كقصة الخلق وولادة المسيح من مريم العذراء ، ومجيئه ثانية إلى العالم والحشر الجسدى وكذلك

تعنى الإيمان بهذا المذهب) [٣٠] يتضح مما سبق أن تاريخ الكلمة ومعنى كلمة الأصولية تختلف اختلافا كاملاً فى الثقافة الإسلامية العربية عنه فى الثقافة المسيحية الغربية وأن كلمة الأصولية العربية لا تساوى كلمة " Fundamentalism " الإنجليزية، لكن يبقى السؤال ما هو التوصيف الإسلامى العربى لجرائم العدوان على النفس بغير حق وترويع الناس والتأثير فى الأمن العام للشعوب والدول والأمن الخاص للأفراد أو ما اصطلح على إطلاق كلمة جرائم " الإرهاب " فى الآونة الأخيرة؟ نقول : إن الكلمة المساوية لهذا المعنى فى الشريعة وعند المسلمين هى كلمة الحرابة .

جرائم الأمن العام والأمن الخاص (الحرابة)

كما ذكرنا أن كلمة الأصولية ليست سلبية فى الثقافة العربية الإسلامية ، وكلمة أصولى أيضا فهى كلمات محببة لنفس المسلم، وبالتالى استخدامها فى سياق الذم يكون صادماً لمشاعر المسلمين ، كذلك حدث استخدام لتعبير عليه خلاف فى الرؤية الإسلامية وهو تعبير الإرهاب ، فهو يستخدم للتعبير على جرائم العدوان والقتل غير المبرر وغير المشروع طوال

(٣٠) قاموس المورد إنجليزى – عربى طبعة ١٩٩٣سنة حرف F

الوقت، فى حين أن هناك وجهة نظر إسلامية ترى أن هذا التعبير له أحيانًا وجهة إيجابية بالمعنى الوارد فى القرآن الكريم : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (٣١) . ففى هذا السياق إعداد القوة للأمة الإسلامية يرهب العدو فيمنعه من العدوان قبل أن يقع وهو وضع أفضل من مقاومة العدوان بعد وقوعه ، وعلى هذا الرأى يتعامل مع تعبير الإرهاب كمعنى إيجابى، ولذلك يطلق المسلمون على جرائم العدوان غير المبرر تعبير أوضح وهو " الحرابة "وهذه التسمية مأخوذة من التعبير القرآنى الوارد فى سورة المائدة فى قوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجُلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٣٢) .

وهذه الآية جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثُم إن كثيرا منهم بعد

---

(٣١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٣٢) سورة المائدة الآية ٣٣ .

ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ (٣٣) .

وهذه الآية تعقب الآيات السابقة التى روى فيها الله تعالى قصة قابيل وهابيل (ابنى آدم) ، وكيف قتل قابيل هابيل ، ولم يدر كيف يدفنه فأرسل الله له غرابًا ليريه كيف يدفن أخاه، والتى اعتبر الله فى الآية السابقة أنه من أجل هذه الجريمة الأولى فى البشرية (جريمة القتل) " قتل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانا شرع لبنى إسرائيل وأعلمهم أنه من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أو فسادٍ فى الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعًا ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أى حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار "(٣٤) .

فقد قرر الله تعالى منذ القدم حرمة قتل النفس البشرية بغير حق ، أى نفس بشرية ثم أعقب هذا القانون الإلهى بعقوبة مغلظة بالغة الشدة فى الآية التى تتكلم عن " الحرابة " .

" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من

---

(٣٣) سورة المائدة الآية ٣٢

(٣٤) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى ج ١ ص ٥٠٩ .

خلاف أو يُنفوا من الأرض ... " يقدم هذا الردع الشديد حتى يوفر الأمن العام للأمة والشعوب والأمن الخاص للأفراد ، فهؤلاء الذين يروعون الناس ويقطعون الطريق ويفسدون فى الأرض ويسرقون ويقتلون هذه كلها أشد أنواع الانتهاك للأمن العام والأمن الخاص ؛ لذلك كانت العقوبة المغلظة لهذا الفعل الآثم ، وهو فعل يتشابه مع الجرائم الحديثة التى يطلق عليها الناس جرائم الإرهاب الحديثة ، وبالتالى فهذه الأفعال مجرمة إسلاميًّا، وكما قلت تعبير " الحرابة " هو أقرب إلى نفوس المسلمين من أى تعبير آخر .

التطرف والغلو " التعبير الثانى للظاهرة الغربية المعروفة بالأصولية " :

ذكرنا أن الأفعال والأفكار المتشددة والمتزمتة التى تعبر عنها كلمات " الأصولية " و" الأصولي" فى الكلمات الإنجليزية ، التعبير الأمثل عنها فى الجرائم المرتكبة هو تعبير " الحرابة " ، وأما التعبير الثانى عن التزمت والتعصب فى الفكر الإسلامى فهى كلمات التطرف والغلو ، وهى صفات تصطدم مع صحيح الدين ومع صحيح الأصولية الإسلامية ، وتعبير المتطرف هو التعبير الإسلامى المرادف للكلمة الغربية "Fundamentalist" وليس " الأصولى " ولقد تصدى الإسلام

منذ ظهوره على يد الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لظاهرة الغلظة والشدة والتشدد فى نصوص كثيرة، منها فى القرآن الكريم ومنها فى الأحاديث النبوية الصحيحة، فالله تعالى يخاطب الرسول الموحى إليه ويذكره بنعمة الله عليه فى قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾[٣٥] ، والرسول نفسه ﷺ يحض على الرفق والتيسير فى أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنتًا ولا متعنتًا ، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا »[٣٦] .

ويقول كذلك ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[٣٧] .

وكذلك ما روته السيدة عائشة عنه ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله »[٣٨] .

---

(٣٥) سورة آل عمران الآية ١٥٩

(٣٦) رواه مسلم عن عائشة

(٣٧) متفق عليه .

(٣٨) رواه البخاري

وكذلك ما روته أيضا السيدة عائشة عنه ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على سواه » (٣٩) .

وعنها أيضا عن النبى ﷺ : « إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه » (٤٠) شانه أى عابه .

ولذلك فإن التشدد والغلظة والعنف فى غير موضعه كلها أوصاف مذمومة طوال التاريخ الإسلامى حتى أواخر العلماء والدعاة المعاصرين قد تصدوا لها ، ومنهم العلامة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى الذى رصد فى كتاب له ٦ دلائل ومظاهر للغلو والتطرف وهى :

١- عدم الاعتراف بالرأى الآخر.

٢- إلزام جمهور الناس بالعزائم والشدائد .

٣- التشديد فى غير محله.

٤- الغلظة والخشونة .

٥- سوء الظن بالناس .

---

(٣٩) رواه مسلم .

(٤٠) رواه مسلم .

٦- السقوط فى هاوية التكفير [٤١] .

ولعلى أختم هنا بالواقعة التى حدثت فى أول رسالة الإسلام حيث جاء مجموعة من الشباب المتشدد يسأل عن عبادة النبى المعصوم محمد ، ﷺ ، والرواية عن " أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى - ﷺ - يسألون عن عبادة النبى، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها (أى استقلوها) فقالوا : وأين نحن من النبى - ﷺ - وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم ! أما أنا فأصلى الليل أبدا، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ فقال: « أنتم اللذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » [٤٢] .

وفعلاً هؤلاء الذين يتشددون ويتزمتون ويتنطعون ليسوا من هدى الإسلام ولا هدى نبى الإسلام ﷺ .

لهذا فهؤلاء أيضًا ليسوا أصوليين لكنهم مغالون

---

(٤١) د/ يوسف القرضاوى ، مصدر سابق ، صـ ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٤٢) متفق عليه .

ومتطرفون، وأفكارهم ليست أصولية إسلامية ولكنها انحراف عن الأصولية الإسلامية.

الخلاصة

نعيد تأكيد ما شرحناه فى هذه الورقة على أن معنى الأصولية الغربية باللغات الغربية ومنها اللغة الإنجليزية ليست الأصولية الإسلامية ، فالأصولية الإسلامية كلمة محببة ومحمودة لدى المسلمين وكذلك الأصوليون هم أهل الاختصاص فى علوم الدين وأصول الفقه فهم محل تقدير واحترام .

أما المعنى السلبى لهذه الكلمة فهو فى الفقه والفكر الإسلامى يعبر عنه بالتطرف والغلو فى الأفكار، ويعبر عن الظاهرة التى ترتكب الجرائم وخاصة القتل والترويع بتعبير " الحرابة " كما ذكرنا، كما يعبر عن المتزمتين والمتشددين بالمتطرفين وجماعات العنف والغلو وليس الأصوليين .